دراساتٌ أدبية:

النقد الأدبي العربي المعاصر بين الأصالة والتجديد

The contemporary Arabic literary critique between originating and modernizing

Kritik kontemporari Sastera Arab di antara usaha mencari relevansi dengan asal-usul dan usaha memperharui mengikut zaman

صباح لخضاري*

ملخص البحث:

ينبني مضمون هذه المداخلة على مناقشة طروحات أساسية في النقد الأدبي العربي المعاصر وتتمثل في أزمة المنهج، والتشويش الحاصل فيه، هذا عبر محاولات التجريب النقدي، ودعوة بعض الأصوات النقدية العربية مغرباً ومشرقاً إلى النهوض بالنقد العربي، ومحاولة الاجتهاد في خلق نقد عربي أصيل له أصوله التاريخية، وله امتداده الحداثي المنبثق من تأثره بما توصل إليه النقاد واللغويون الغربيون، خاصةً بعد نضج المنهج اللغوي الوصفي عندهم، والذي استفاد منه نقدهم أيما استفادة، وقد حاولت هذه المداخلة مناقشة كيفية تجديد النقد الدبي العربي المعاصر عبر دراسة بعض الاستشهادات النقدية لنقاد عرب معاصرين. خرجت الدراسة بنتائج، منها: أن ما يمر به النقد العربي المعاصر حالياً، شيء ضروري وحتمي من أن يمر به، وهي حالة كل ضعيف يبحث عن ذاته بعد أن فقدها وسط ذلك الركام الهائل من الثقافات، والكم الكبير من المعلومات والتطور العلمي والفكري والإبداعي والتكنولوجي الباهر؛ إنها الحتمية التاريخية للتطور، ولا يمكن لأي أحد إنكارها، ثم حدوث زلزلة ذاتية بالبحث عن مقوماتها الذاتية وخصوصيتها الثقافية والحضارية، والشعور بمرض الانبهار، وأزمة الابتكار، مما يؤدي إلى البحث عن أسس النجاة من هذا الأسر والتماس منهج النجاح والتفوق عليه، وتحقيق السلم الداخلي والتصالح الفكري الذاتي، وهذا نجاح لا يفوقه نجاح؛ لأنه سبب كل انتصار ذاتي: فكري وإبداعي وإنساني وعلمي وتكنولوجي.

الكلمات المفتاحية: إشكالية –قراءة الذات –مابعد الحداثة –المصطلح النقدي –التأصيل.

Abstract:

* أستاذة البلاغة والنقد، المركز الجامعي، النعامة، الجزائر.

The content of this paper is based on the discussion of essential topics in modern Arabic literary critique that is manifested in the crisis of methodology and the confusion resulted thereof. This is done through experimental critique and the calling of critics in the eastern and western part of the Arab nations to take on Arab literary critique to throw in their efforts to create an original Arab literary critique that is historically rooted but has its modern extension that is derived from the influence of what is concluded by the western linguists and critics. This is in particular after the maturity of the descriptive linguistic method in the west that has benefited its critique extensively. This paper attempts to discuss the means to modernize Arabic literary critique through studying some statements of modern Arab critics. The study concludes, among others: The stage that the Arabic literary critique is passing through currently is inevitable, it is a situation when every weak entity tries to redefine itself after a long period of loss under the huge rubble of cultures and the huge quantity of information and knowledge, thinking and creative development; it is an inevitable historical change that cannot be dismissed by anyone. Subsequently, there was a self-eruption to find its characteristics of its identity and its cultural and civilizational attributes. The feeling of pride and the crisis of creativity had brought to uncover the foundations to salvage from this imprisonment and to find means to succeed in order to attain internal solace and reconciliation of the thoughts. This is the ultimate success as it is the reason of every self-victory that is intellectual, creative, human, scientific and technological.

Keywords: Problematic issue – self-analysis – post-modernism- terms of critique – roots.

Abstrak:

Kandungan kajian ini adalah berdasarkan perbincangan topic-topik dasar dalam bidang kritik kesusasteraan Arab yang terangkum dalam krisis metodologi dan kesamaran yang terhasil kerananya. Ini dilakukan dengan cara kritik eksperimen dan dengan menyeru kepada para pengkritik di bumi Arab di timur dan barat untuk mereka sama-sama menangani isu keritik sastera ini dengan menggembleng usaha bagi mewujudkan satu kritik sastera Arab yang asli yang berakar pada sejarah tetapi tetap mempunyai cabangannya pada konteks moden hasil pengaruh dapatan kajian para pengkritik dunia barat dan ahli-ahli bahasa mereka. Ini secara khususnya selepas kematangan metod linguistik deskriptif di barat yang telah memanfaatkan bidan kritik sastera mereka secara amat luas. Kertas ini cuba untuk memperincikan cara-cara untuk memodenkan kritik sastera Arab melalui kajian beberapa pernyataan figura-figura kritik sastera Arab semasa. Antara dapatan kajian ini: Tahap yang sedang dilalui sastera Arab

kini adalah sesuatu yang tidak dapat dielakkan. Ia adalah satu situasi apabila setiap entity yang lemah mencuba untuk melihat kembali dirinya selepas melalui satu kehilangan ditimpa keruntuhan budaya dan limpahan maklumat dan pengetahuan serta pemikiran dan perkembangan kreatif. Ia adalah satu situasi perubahan yang tidak dapat dinafikan oleh sesiapapun. Seterusnya,berlakulah ledakan identiti diri untuk mencari sifat-sifat budaya dan ketamadunannya sendiri. Kebanggaan dan krisis penghasilan sesuatu yang kreatif telah membawa kepada usaha menemukan asas-asas untuk membebaskan diri dari terus dibelenggu, untuk terus mencari jalan untuk kejayaan bagi menghasilkan ketenangan dalaman dan penyatuan buah-buah fikiran. Ini lah kejayaan yang ulung kerana ia adalah sebab kejaaan diri yang intelektual, kreatif, manusiawi juga berteknologi.

Kata kunci: Permasalahan – Analisa Kendiri – Post –modernisme – istilah-istilah kritik –pencarian relevansi dengan asal.

مقدمة:

هدف هذه المداخلة هو التنبيه على أزمة المنهج في النقد العربي المعاصر، والدعوة إلى قراءة جديدة لنقدنا وتراثنا القديم، ومحاولة البحث عن نقطة البداية، أو بعبارة أخرى نقطة الانطلاق التي منها نبدأ جمع شتاتنا النقدي، وقد جعل بعض النقاد ما توصل إليه عبد القاهر الجرجاني من جهود نقدية وبلاغية، انطلاقة المشروع النقدي العربي الأصيل والدعوة إلى الاستفادة من حضارة الآخر الغالب، وثقافته بما يلائم حضارتنا وثقافتنا وما يفيدنا، وليس الدخول في غياهب الانبهار الكلي الذي تضيع فيه هويتنا فتزداد غربتنا بين ظهراني أهالينا.

إن نقدنا المعاصر ما زال حتى الآن في مرحلة النقل والاتباع للآليات النقدية الغربية وإجراءاتها، وهي في أغلب الأحيان لا تُطبق مثلما نُظِّر لها في بيئتها وتربتها، ولعل هذا ناتج عن عدم الفهم الدقيق لهذه الآليات، فضلاً عن سوء الترجمة في بعض الأحيان، والخلط بين المناهج في منهج معين، وكذا الخلط بين الإجراءات التحليلية للأجناس الأدبية، فكل منهج نقدي يخصص آليات لتحليل الأنواع الأدبية تختلف عن بعضها بعضاً، فآليات تحليل النص الشعري تختلف عن آليات تحليل النص السردي في المنهج الواحد، لخصوصية كل نوع أدبي وتميزه.

وفي هذا الصدد يقول فاضل ثامر: (يواجه النقد العربي الحديث جملة من الإشكاليات الكبرى، ربما تقف في مقدمتها إشكالية البحث عن منهج نقدي أو مناهج نقدية قادرة على استنطاق الخطاب الأدبي وقراءته بطريقة خلاقة. فقد ظلت مسألة المنهج في النقد، أو النقد المنهجي، غير واضحة، وغير مستقرة في الممارسة النقدية لمعظم النقاد العرب منذ مطلع هذا القرن، وحتى وقتنا الحاضر. وكثيراً ما لمسنا اضطراباً فاضحاً في تحديد مفهوم المنهج ووظيفته وآليته، بل كنا نلحظ في أحيان أخرى

غياباً فاضحاً كاملاً للمنظور المنهجي في الخطاب النقدي، إلا أننا من جانب آخر لم نعدم ظهور بعض ملامح النقد المنهجي في تجارب عدد من النقاد العرب، إلا أنها ملامح لم تتكامل أو تتضح بصورة متوازنة. ويبدو أن الانفجار النقدي الراهن في مضمار النظرية الأدبية قد وضع إشكالية المنهج في الصدارة باعتبارها مهمة راهنة وملحة تتطلب المعالجة والحسم).[١]

إن وعي الحركة النقدية العربية بأزمة المنهج في نقدنا العربي بدأت بالتبلور بعد جهود حسين المرصفي النقدية، وقد كان محمد مندور من النقاد الأوائل الذين فطنوا لمأزق الإشكال المنهجي الذي ظل النقد العربي الحديث والمعاصر يتخبط فيه منذ زمن بعيد؛ وقد أكد في كتابه **النقد المنهجي عند العرب** أن العرب القدامى عرفوا مناهج نقدية تبلورت بصفة خاصة خلال القرن الرابع الهجري.[٢]

وإذا كان النقد العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين قد عرف أوج ازدهاره فإنه في القرون الحديثة والمعاصرة قد عرف وعكة واضطراباً وخللاً، وقد وضح مندور هذا في كتابه **النقد والنقاد المعاصرون**، عندما حاول دراسة واستقصاء مناهج بعض النقاد العرب أمثال طه حسين، وحسين المرصفي، وميخائيل نعيمة، والعقاد وصاحبيه المازني وعبد الرحمن شكري، ولويس عوض ويحيى حقي، فخرج بخلاصة مهمة جداً، هي: أن النقد العربي يشكو من عدم تبلور مناهج للدراسة الأدبية.[٣]

وقد تنبهت، يمنى العيد وأدركت إشكالية المنهج في النقد العربي، وأظهرت خوفها من المناهج الغربية؛ لأنها لا تعدو أن تكون تجارب فقط في الساحة النقدية الغربية؛ إذ توقفت: (بشكل خاص أمام هم الناقد العربي لتملك مناهج هي نفسها ما زالت تطرح علامات استفهام على بعض أسسها أحياناً، وعلى وظيفتها أحياناً أخرى؛ أي أنّ هذه المناهج ما زالت بدورها محاولات على الرغم من الخطوات الكبرى التي خطتها. وهذا ما يضع نقدنا الحديث –كما ترى الناقدة– في موضع القلق والاضطراب الدائمين ويفرض عليه للخروج من هذا الوضع، العمل على تأسيس فكر علمي في ثقافتنا قادر على المساهمة في انتاج مناهج نقدية علمية، ومناهج لها صفة الكونية).[٤]

أما عبد العزيز حمودة الذي كان منبهراً بالمناهج النقدية الغربية خاصةً البنيوية، فيكتشف بعد أن درسها دراسة متمحصة وعميقة في أصلها، أنها مجرد تجارب نتجت عن التطور الفكري والحضاري لأوروبا خلال ثلاثمائة عام، فالحداثة في الغرب هي اضطرار معرفي وحضاري، خلقه النمو والتطور الذي شهدته المنطقة، وليس شيئاً غريباً عن تربته مخلاً لنظم واقعه؛ وقد أفصح في كتابه **المرايا المحدبة** عن انبهاره بهذه المناهج في زمن التقليد الأعمى، والافتخار باجترار ما أنتجه الغرب، دونما تمييز مع الشعور بالضعف والعجز؛ شعور المغلوب أمام الغالب، فقال: (وقفت طويلاً منذ السنوات الأولى منذ الثمانينيات، على وجه التحديد أمام كتابات البنيويين العرب أو الحداثيين العرب، بإحساس ظل حتى وقت قريب مزيجاً من الانبهار والشعور بالعجز والانبهار، لأن مجموعة من الأكاديميين العرب استطاعوا في فترة

الانكسار، التي تلت هزة الإنسان العربي عام ١٩٦٧ أن ينقذوا شرف النقد العربي على حد قول الراحل لويس عوض، في أحد اللقاءات الفكرية في أواخر الثمانينيات، وهذه حقيقة لا مراء فيها. وكانت أبرز منابر النشاط النقدي الجديد هي مجلة فصول، التي فتحت أبوابها أمام المفكرين المصريين والعرب، فقدموا الدراسات الجادة والترجمات المتميزة عن البنيوية؛ لكن ذلك الانبهار، كما قلت خالطه طوال الوقت شعور عميق –لم أفصح عنه حتى اليوم– بالعجز: العجز عن التعامل مع هذه الدراسات البنيوية، وفهم أهدافها بل فهم وظيفة النقد ذاته في ظل المصطلحات النقدية المترجمة والمنقولة والمنحوتة والمحرفة التي أغرقونا فيها لسنوات. ومما كان يعمق ذلك الإحساس بالعجز، تلك الرسوم التوضيحية –يفترض أنها كذلك!– والبيانات والجداول الإحصائية والرسومات المعقدة من دوائر ومثلثات وخطوط متوازية ومتقاطعة وساقطة والتي كانت تبعدني –وما زالت حتى اليوم– عن الأعمال الأدبية موضوع المناقشة بدلاً من أن تقربني منها، فقد كنت أقف أمامها في عجز كامل عن فك طلاسمها أو شفرتها كما يحلو للبنيويين أن يقولوا).[٥]

والذي ضخم صورة الانبهار بالبنيوية، لدى حمودة، هم النقاد العرب المعاصرون أمثال: كمال أبو ديب وجابر عصفور وغيرهم الذين تعاملوا مع الحداثة الغربية النقدية بقداسة وانبهار كلي، جعلهم يرون الأمر وأنفسهم في مرايا محدبة، تبالغ في إظهار حقيقة الشيء وتزيف حجمه الطبيعي؛ مما يجعل الرؤية مزيفة ومشوشة وغير حقيقية، يقول: (لكنني في جميع المناسبات التي تعاملت فيها مع النقاد العرب الحداثين لم أتخلص من ذلك الانبهار، حدث ذلك وأنا أقرأ دراسات كمال أبو ديب، عن الشعر الجاهلي وتحليله للقصيدة الجاهلية أو لنقل مناقشته للقصيدة الجاهلية، فإن لفظة —التحليل– قد غدت سيئة السمعة في قاموس الحداثة وما بعد الحداثة. حدث نفس الشيء، عند تعاملي مع كتابات جابر عصفور وهدى وصفي، وحكمت الخطيب وترجمات سامية أسعد، وآخرين لا عد لهم ولا حصر، ركبوا موجة البنيوية في جدية، وإخلاص أحياناً، وفي غير جدية أو إخلاص في أحيان أخرى).[٦]

وعمل عبد العزيز حمودة، على دحض مقولات التفكيك والبنيوية والحداثة المزيفة، وإظهار فشل البنيوية والتفكيك، في أن يكونا منهجين نقديين؛ إذ يقول: (خلاصة الأمر أن البنيوية والتفكيك، انطلقا من رفض مشترك للمذاهب النقدية المعاصرة، والسابقة نحو هدف واحد –على رغم اختلاف الوسائل التي اختارها كل منهما– وهو تحقيق المعنى؛ وانتهيا إلى نفس المحطة النهائية. فالبنيويون فشلوا في تحقيق المعنى والتفكيكيون نجحوا في تحقيق اللامعنى. لقد رفضوا كل شيء ولم يقدموا بديلاً أو بدائل مقنعة. وعلى رغم ذلك فلم يتوقف ضجيجهم وهم واقفون أمام مراياهم المحدبة، فهم يتحدثون وكأنهم المخلصون الجدد لحركة النقد المعاصر. ولم تكن وقفة الحداثيين العرب، في الواقع أمام المرايا المحدبة أقصر أو أقل استغراقاً، ولم تكن أصواتهم أقل صخباً برغم أن موقفهم المبدئي أكثر ضعفاً).[٧]

كما كشف في كتابه المرايا المحدبة، تناقض النقاد العرب في كتابتهم؛ مما يظهر عدم فهمهم الجيد للحداثة الغربية وللمناهج الغربية، وهذا ما جعلهم يدخلون القارئ العربي في اضطراب فكري، وتشويش ذهني.[٨]

وهو يرى أن هذه المناهج تظهر في نقدنا، بعد إعلان موتها في النقد الغربي، ويهلل لها نقادنا العرب المعاصرون، بعد أن عزف النقاد الغربيون عن ذكرها؛ لأنها أصبحت من الماضي، وغير صالحة لمواكبة تطورهم، وهو يطالب المنابر الإعلامية والثقافية بالعمل على توضيح مفاهيم البنيوية، وكل المناهج والمعارف الغربية التي دخلت إلى ثقافتنا، فيقول: (نسمع كلاماً عن البنيوية يدور على لسان مثقفينا... تستوقفنا أبحاث فكرية تعتمد المنهج البنيوي، نرى أن نقدنا الأدبي يتجه حديثاً نحو الإفادة من البنيوية... أمام هذا الواقع أرى أن من الضروري أن تأخذ من إبرنا الثقافية –سواء أكانت مجلة أم صحيفة أم منبراً للحديث– على عاتقها مهمة التوضيح المفهومي، ليس للبنيوية وحسب، بل لكثير من العلوم والمعارف التي تدخل مجالنا الثقافي والتي يتعامل معها فكرنا، إن الحديث عن تغلغل المشروع البنيوي في واقعنا الثقافي في منتصف الثمانينيات أمر مؤلم حقاً، فقد كانت البنيوية في بلاد النشأة قد دفنت ووريت التراب، منذ عام ١٩٦٦ على وجه التحديد بعد محاضرة جاك دريدا المشهورة في مؤتمر بجامعة جونز هوبكنز،... بل إن التفكيك نفسه كان –في الوقت الذي كانت تنشر فيه حكمت الخطيب دراستها– قد بدأ يتلقى الضربات من الرافضين له في الولايات المتحدة مقره الرئيسي، ومن الداعين للمدرسة التأريخية الجديدة، هذا بالإضافة إلى أن البنيوية نفسها كانت قصيرة العمر في بلاد المنشأ بشكل ملحوظ).[٩]

إن الحداثة في الغرب، جاءت نتيجة تطور في جميع مجالات الحياة استمر سنوات طويلة؛ مما جعل ظهورها أمراً عادياً ومتوقعاً، فالحداثة الغربية إذاً هي: (نتاج ثقافة غربية، والمصطلح النقدي الحداثي، إفراز للفلسفة الغربية خلال ثلاثمائة عام من تطورها. وعلى رغم ذلك فإن الحداثة في قلب التربة الثقافية الغربية، خلقت أعداءها والرافضين لها. ولم يكن المصطلح النقدي الجديد أوفر حظاً، فهو يمثل أزمة متجددة، لا تفقد قوة دفعها في لحظة من اللحظات. فما بالنا، بالنسخة العربية التي نقلت النتائج الأخيرة للفكر الغربي، دون أن تكون لها مقدماته المنطقية، واستخدمت مصطلحاً نقدياً يجمع بين غرابة النحت وغربة النقل إلى لغة جديدة!).[١٠]

وحمودة ليس بالرافض للحداثة، بل هو يدعو إليها، ويرى أننا بحاجة إليها خاصةً وأننا نعاني ضعفاً وتخلفاً؛ لكن الحداثة التي يدعو إليها ينبغي أن تنطلق من مرجعياتنا، وثقافتنا العربية الإسلامية، حتى تحقق التفوق والنجاح، يقول: (لقد عشنا قروناً طويلة من التخلف الحضاري يجعل الحداثة ضرورة من ضرورات البقاء وليست ترفاً فكرياً. لكن السؤال الذي تثيره الدراسة الحالية في إلحاح لست نادماً عليه هو: –أي حداثة نعني؟– حداثة الشك الشامل، وغياب المركز المرجعي، واللعب الحر للعلامة، ولا نهائية الدلالة، ولا شيء ثابت ولاشيء مقدس! والإجابة التي تخلص إليها الدراسة واضحة: نحن فعلاً بحاجة إلى

حداثة حقيقية تهز الجمود وتدمر التخلف وتحقق الاستنارة، لكنها يجب أن تكون حداثتنا نحن، وليست نسخة شائهة من الحداثة الغربية).[١١]

أما عبد الرحمن بوعلي أحد النقاد المغاربة المعاصرين فيرى أن النقد العربي، كان دون صوت في حين أن الإبداع جرّب أصواتاً لا تحصى، وقد شبهه بالبطل التراجيدي اليوناني السائر دائماً في طريق محفوف بالمخاطر والانهيار، وهو يستثني التجارب النقدية لطه حسين ومندور وغيرهم، وعدّها تجارب مفردة لا تساعد على الحديث عن نقد عربي بمفهوم صحيح حتى وإن ظلت علامات مضيئة في الزمن الحاضر.[١٢]

وهناك تساؤل عن حضور الإبداع في الساحة الثقافية والإبداعية العربية وغياب النقد، وهي توسم بالمفارقة العجيبة، في التاريخ الفكري العربي، وهي على الرغم من حضور الإبداع، غاب النقد فيها ولم يستطع أن يتجاوز حالة الشروح والتعليقات والإنشاء والترجمات، ولم يستطع أن يؤسس قواعده وآلياته.[١٣]

ومن جانب آخر يعود سبب مأزق النقد العربي وأزمته إلى قطيعة معرفية، ونظرية ومنهجية، بين ما هو متصور عن النقد، وما هو عليه النقد العربي الآن؛ إذ حصل أن تجسدت هذه القطيعة بسبب اتساع الوعي النقدي، ولحضور المستندات النظرية والعلمية التي أتاحتها العلوم الإنسانية، ولا سيما علم الاجتماع.[١٤]

ففي تقييم للتجربة النقدية الروائية العربية، نجد أن النقد المغربي يتميز بالصرامة والانضباط، وإن لم يخل من بعض المشكلات؛ بينما ظل النقد المشرقي يتخبط في مشكلات منهجية وإيديولوجية ذات طابع سياسي واجتماعي، كما أقر أحد الباحثين في كتابه **النقد الروائي والأيدلوجيا** إلى أن عدم تمييز النقاد المشارقة بين المناهج وعدم تبنيهم الواضح لمفاهيم منهجية محددة، يعود إلى ارتباطهم بالنقد الأنجلوسكسوني الذي لم يهتم بقضية التمييز الواضح بين المناهج النقدية، وهو أمر حرصت عليه المدرسة الفرنسية حرصاً شديديا كما بينت أدبياتها.[١٥]

ويعتقد بعض الباحثين أن النقد الروائي العربي كان دائماً يقتفي خطوات النقد الغربي خطوة خطوة، وكثيراً ما كان النقاد العرب يأخذون بتلك المعطيات بشكل حرفي، ليعاد إنتاجها من جديد بأساليب مختلفة، وأنواع أجنبية متعددة، تتصف بسمة الابتسار في أكثر الأحيان.[١٦]

وهكذا نلحظ وعياً متميزاً لدى نقادنا المعاصرين بأزمة النقد العربي المنهجية، وقد أثاروا هذه القضية في مباحث وفصول بل وكتب، ملثما فعل سعد البازعي في كتابه **استقبال الآخر الغرب في النقد العربي الحديث**، والذي حاول فيه الوقوف عند مجموعة من الإشكاليات في النقد العربي، خاصةً عنصر المثاقفة، وكيفية تعامل النقاد العرب مع النقد الغربي؛ حيث إن هناك نقاداً في اليابان والصين

والهند، ممن يرون أن المثاقفة عملية معقدة تحتاج إلى الكثير من الوعي عند التعامل معها؛ لأن النظريات الغربية بذاتها لا تملك سمة العالمية التي تدعيها أو يدعيها الآخرون لها.[١٧]

وقد قسم البازعي كتابه إلى قسمين كبيرين القسم الأول، سماه النقد الغربي: خصوصية السياق؛ أما القسم الثاني، فقد وسمه بالاستقبال العربي، وشرح البازعي مصطلح الاستقبال في المقدمة منطلقاً من المفهوم الديني له، وهو استقبال القبلة، ليشير إلى ما يحمله اللفظ من دلالة القداسة والاحترام، واصفاً نوعية العلاقة النقدية العربية بالنقد الغربي، وكيفية تلقي النقاد العرب لفكر وإبداع الثقافة الغربية، متحدثاً عن إشكالية التفاعل عبر مآزق التثاقف دون بحث وتحليل.

ويمكن إجمال محتوى الكتاب في ثلاث نقاط، هي:

١. واقع النقد العربي الحديث (المعاصر) هو جزء من الثقافة العربية بمجملها.
٢. وجود إخفاقات في النقد العربي المعاصر، على الرغم من الإنجازات التي حققها.
٣. إشكالية المثاقفة والآخر (هو الغربي).[١٨]

البحث في أسس التأصيل:

فالمناهج الغربية الحديثة على الرغم من التقافها من النخبة العربية المثقفة، بقيت بعيدة عن ذواتنا العربية وخصوصيتنا الثقافية والحضارية، لذا يجدر بنقادنا البحث عن هذه الخصوصية، والنظر فيها دون استيراد المفاهيم وإعلان القطيعة مع ماضينا الذي هو أساس حاضرنا ومستقبلنا؛ لأننا بدونه نكون كالشجرة المجتثة التي ليس لها قرار.

إذ ليس هناك رابطة تربط الأدب العربي القديم والحديث بالمناهج المستحدثة في أوروبا وأميركا؛ لأنها مناهج نشأت نتيجة ظروف اجتماعية وفكرية وسياسية واقتصادية، وحضارية وتاريخية خاصة بالمجتمعات التي احتضنتها؛ فالفكر الغربي يعدّ فكراً مبدعاً ومتطوراً على المستويين؛ الإبداعي والنقدي، والمعرفي والمنهجي، وهو في كل حال يجدّد مناهجه تبعاً لتجدد حركية الحياة داخل مجتمعاته، وعند مبدعيه سواء أكانوا أدباء أم علماء، وكلّما وجد الانسان الغربي أن هذا المنهج أو ذاك استكمل وظيفته وأدى دوره كاملاً في تطوير المعرفة التي وضع من أجلها، أعلن عدم صلاحيته، كما يفعلون مع عماراتهم السكنية: يسجلون يوم بنائها وتاريخ هدمها؛ وفكر كذلك في استبداله بغيره ليخلفه في دوره القاضي بالدفع بمعارف الأمة نحو ما هو أحسن؛ أما العقل العربي ومفكروه فتابعون دائماً؛ إذ ننتظر دوماً هذا العقل القوي الذكي حتى يصنع لنا الأبرة لنخيط بها لباسنا وأغطيتنا.[١٩]

ولذلك علينا نحن المثقفين العرب النهوض بتراثنا والنظر في ذواتنا لتأسيس خصوصية منهجية تستلهم موروثنا المعرفي الماضي، وتراعي شروط حاضرنا المحكوم بجملة من الاعتبارات، وتستشرف مستقبلنا الذي نريده للتعبير عن هويتنا العربية الإسلامية.[٢٠]

وللحصول على هذه النتيجة ينبغي علينا تحقيق أمرين: الأمر الأول الرجوع إلى تراثنا العلمي القديم وسبر أغواره واكتشافه بقراءة جديدة لحصر العناصر المعرفية والمنهجية فيه، واستحضار ما هو منهجي وملائم لتوظيفه كما هو أو ما هو قابل للتطوير قبل التوظيف، ولاستخلاص ما هو صالح لننطلق منه.[٢١]

أما الأمر الثاني فيكمن في الانفتاح بوعي وعمق وحرية على تراث الغرب وتراثه النقدي والأدبي، وما يجدُّ في شتى سوحه ومختلف ميادينه، لا بهدف اتباعه والبقاء فيمؤخر الركب واللهاث خلفه، ولكن من أجل الحصول على المقومات التي أهلته للتقدم العلمي والتقني والمنهجي، وامتلاكه للمفاتيح التي لا تبقي أي باب مسدوداً في وجهه يريد دخوله وارتياده، ودون هذا الامتلاك سوف يكون مستحيلاً علينا أن نسهم بشكل فعال في إبداع الثقافة والحضارة، وسوف نظل مستهلكين لكل ما تبقى من فتات.[٢٢]

بهذا سنتخلص من سجن مقولات ستراوس وبارت وباختين ولوكاتش وغيرهم، ونؤسس ذاتنا وهويتنا التي تعطينا الثقة بالنفس وعدم الإذعان لحكم القوي والغالب، اقتصادياً وتكنولوجياً وعسكرياً إذعان الذليل التابع؛ لأن منشأ القوة يكون من الذات وإعادة قراءتها، ومعرفة نقط الضعف والعمل على إصلاحها، ومعرفة نقط القوة والعمل على تطويرها.

ونحن لا نريد بهذا، إقصاء الآخر، أو الانكفاء على الذات، والتقوقع داخل قوقعة الذات بتخلفها وتأزمها ونقصها وعقدها، بل ندعو للانفتاح على الآخر والأخذ منه، ما يفيد مقوماتنا الحضارية والثقافية، بوعي فكري، ناقد، وقوة شخصية لها أصول حضارية مشرقة، دون الانبهار الكلي والتبعية المطلقة لهذا الآخر القوي والمتقدم تبعية الذليل المقهور.

وفي هذا نرى أن التجارب الحضارية المتعددة التي مرت بها الأمة عبر التاريخ، علمتنا أن أخطر ما يواجه أمة ما، هو أن تشعر بالانهزام في فكرها ومنهج حياتها أمام خصومها حضارياً، وتكون هذه الخصومة على شكل استسلام تام للعقل أمام منهج الغرب عقدياً وفكرياً وسلوكياً.[٢٣]

إن جل ما كتب في النقد العربي المعاصر، تنظيراً وتطبيقاً، لا يعدو أن يكون مجرد ترجمات للمناهج الغربية، وإعادة صياغة هذا التراكم الثقافي والنقدي الغربي واجتراره مرات عديدة، أو محاولات لتطبيق أحد هذه المناهج وإقحامها في ثقافتنا النقدية والحضارية والتاريخية.

يقول أحد الباحثين في هذا الصدد الساحة النقدية قدعرفت في العصر الحديث تهافتاً كبيراً على استيراد المناهج والمذاهب والتيارات المختلفة كتهافتها على استيراد السلع والبضائع دون قيد أو

شرط، ودون معرفة دقيقة بهذه المناهج وبالبيئة أو التربة التي أنبتتها، والظروف التاريخية والمعرفية التي أوجدتها، والملابسات النفسية التي خلقتها، مما أوقع النقاد في اضطراب كبير، فالمتأمل في المحاولات النقدية التي وظفت المناهج الغربية المستوردة في دراستها للأدب العربي يلحظ ذلك الاضطراب، والقلق الذي يطبع تلك المحاولات فجاءت تطبيقاتهم تتسم بالنقص والابتسار.[٢٤]

ومن الإشكاليات الكبيرة الحمل في النقد الأدبي العربي المعاصر والقوية الثقل، كثرة الإنتاج الإبداعي أمام اضمحلال النقد وانحساره؛ مما جعله لا يواكب الإبداع وتطوره في الساحة الثقافية، على الرغم من كثرة الأصوات المدعية تخطي النقد العربي لأزمته المنهجية وتطوره تطوراً ملحوظاً، بل ودخول العصر الأدبي الذهبي، نتيجة استطاعة بعض النقاد العرب تمثل المناهج الغربية وتطبيقها على الإبداع العربي، ونقل هذه المناهج من تربتها الخصبة، ووطنها الأم، إلى تربة أخرى مغايرة تماماً، متناسين خصوصية كل تربة وتميّزها.

هذا ما جعل العديد من الغيورين على خصوصية النقد العربي المنبثق من فكره وثقافته وحضارته، مشرقاً ومغرباً، ينادون بالعودة إلى قراءة النقد العربي القديم والحديث والمعاصر، للتعرف إلى الذات النقدية العربية، واكتشاف إيجابياتها وسلبياتها ضمن مسيرتها التطورية، وبعد المسح الشامل لهذا النقد وإعادة قراءته قراءة نقدية موضوعية، تُحَدَّدُ انطلاقة بناء النقد العربي، وتكوينه على أسس متينة وثيقة العرى بثقافته وحضارته العربية.

وبهذا سنحقق القوة والتفوق والنجاح ليس في النقد وحسب، بل في جميع مجالات الحياة أولّها الإحساس بالثقة في أنفسنا وكسر لكل سيمات التشويش والاضطراب.

إن الشعور بالأزمة والاعتراف بها هو بداية الشفاء منها، فنحن لسنا متشائمين من الوصول إلى نقد عربي متطور ومزدهر، لإيماننا بقوتنا وقدرتنا المستمدة من تراثنا المشرق وحضارتنا النورانية، كما أن هذا الوعي هو الذي سيقودنا إلى حل، نَكْسِر به كل تشويش فكري.

وحريّ بنا أن ننتهج طريق المفكرين الغربيين في الخروج من الأزمات الفكرية والنقدية، فهم كلما شعروا بالخلل والنقص والضعف، أنتجوا البديل بسرعة مذهلة ليسلكوا طرق النجاح والتفوق المتجددة والمستمرة، فهم لا يكتفون باجترار ما أنتجوه في السابق، بينما نكتفي نحن باستيراد واستهلاك ما ينتجون من فكر ومنهج يلائم تطورهم وحضارتهم ومشاكلهم وأزماتهم، فيجدر بنا إذن أن نعتمد على أنفسنا في صياغة منهجنا النقدي وأن نتعلم فنون الصيد، وطرقه التي توائم مياهنا وقدرتنا على السباحة فيها وقيمة منتوجنا، ولا نفرح بالسمك المعطى لنا، ونحن في راحة تامة لا يرهقنا إلا كيفية أكل السمك، الذي تمنينا لو أنهم أتموا معروفهم وأطعمونا إياه، حتى لا نتعب.

كل تراث له خصوصيته وتميزه وبصمته الخاصة والمتفردة، ولا يستطيع أي أحد أن يلبسه شيئاً لا يليق به؛ لأن عواره سيظهر لا محالة، فهذا التراكم النقدي وحتى الإبداعي عدّه عباس الجراري تراكماً

معرفياً مشلولاً لأنه لم يراع خصوصيتنا الثقافية والحضارية،[٢٥] وعدّه حسن الأمراني حملاً كاذباً، كما وصف دعاة المشاريع المستقبلية المعتمدة على الفكر الغربي المحض بالنافخين في الرّماد.[٢٦]

الخاتمة:

أعتقد أن ما يمر به النقد العربي المعاصر حالياً، شيء ضروري وحتمي من أن يمر به، وهي حالة كل ضعيف يبحث عن ذاته بعد أن فقدها وسط ذلك الركام الهائل من الثقافات، والكم الكبير من المعلومات والتطور العلمي والفكري والإبداعي والتكنولوجي الباهر؛ إنها الحتمية التاريخية للتطور، ولا يمكن لأي أحد إنكارها، وهذه الحتمية تقتضي المرور بمرحلة التقليد الأعمى للمبتكر القوي الغالب المنتصر، والانبهار به انبهاراً كلياً شئنا أم أبينا، ثم حدوث زلزلة ذاتية بالبحث عن مقوماتها الذاتية وخصوصيتها الثقافية والحضارية، والشعور بمرض الانبهار، وأزمة الابتكار، مما يؤدي إلى البحث عن أسس النجاة من هذا الأسر والتماس منهج النجاح والتفوق عليه، والانطلاق طبعاً، يكون دائماً من هذه الذات الثائرة والباحثة عن الأفضل، لتحقيق خصوصيتها وبصمتها وصورتها الأصلية، بدل الصورة المنسوخة الممسوخة، لينطلق عهد الإبداع والابتكار، وتحقيق قوة الذات والوعي بقيمتها وكفاءتها في إعلان التحدي، وتحقيق السلم الداخلي والتصالح الفكري الذاتي، وهذا نجاح لا يفوقه نجاح، لأنه سبب كل انتصار ذاتي: فكري وإبداعي وإنساني وعلمي وتكنولوجي.

ولعل سعد البازعي يشاطرني الرأي عندما قال: (إن المشكلات التي تواجه الناقد العربي، وغير العربي، في محاولاته الإفادة من النقد الغربي، ليست محصورة بالطبع في المناهج، وإنما هي مواجهة متعددة الجبهات. وهي في كل مظاهرها، سواء اتخذت مظهر الحيرة المنهجية أو التوظيف غير الدقيق للمصطلحات أو سوء فهم ما يسعى الناقد إلى توظيفه من منهج أو مصطلح أو غيره، لا تعني بالضرورة أو في كل الحالات ضعفاً لدى الناقد، بل هي في بعض الأحيان جزء طبيعي من عملية النمو الفكري والوصول إلى قدر أكبر من النضج. وإذا كان ذلك القدر الأكبر من النضج لا يصل إلى الوضع المثالي).[٢٧]

لذلك لا نشك أبداً في الوصول إلى نقد عربي أصيل مزدهر ومتطور، يحقق شروط النجاح المبني على أساس فهم الخصوصية التاريخية والحضارية والثقافية للذات العربية، وهذا الاعتقاد، ليس تفاؤلاً مريضاً أو وهماً رجعياً، إنما حقيقة لمسناها عبر ما لاحظناه في الساحة النقدية العربية من مساعي مبذولة مشرقاً ومغرباً لتحقيق هذه الرؤية الفكرية والحضارية من نقاد واعين بأزمة النقد العربي ومشرئبين لتحقيق نقد عربي أصيل.

فالشعور بالأزمة والمرض هو بداية التماثل للشفاء؛ لأن المريض المتألم سيبدأ بالبحث عن طرق العلاج وتحقيق أسباب الشفاء بلا ريب.

هوامش البحث:

[١] فاضل، ثامر، **اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث**، ط١، (الدار البيضاء: المركز الثقافي، ١٩٩٤م)، ص٢١٧.

[٢] انظر: المرجع السابق، ص٢٢٤- ٢٢٥.

[٣] انظر: السابق نفسه، ص٢٢٤.

[٤] السابق نفسه، ص٢٣٢.

[٥] حمودة، عبد العزيز، **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٨م)، ص٨.

[٦] المرجع السابق، ص١٢.

[٧] السابق نفسه، ص٨.

[٨] انظر: السابق نفسه، ص١٢، ص١٣.

[٩] السابق نفسه، ص١٣.

[١٠] السابق نفسه، ص٨ .

[١١] السابق نفسه، ص٨، ص٩.

[١٢] انظر: بوعلي، عبد الرحمن، **في نقد المناهج المعاصرة البنيوية التكوينية**، ط١، (الرباط: مطبعة العارف الجديدة، ١٩٩٤م)، ص٨.

[١٣] انظر: السابق نفسه، ص٨.

[١٤] انظر: السابق نفسه، ص٩.

[١٥] انظر: الحميداني، حميد، **النقد الروائي والأيديولوجيا: من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م)، ص١١٩.

[١٦] انظر: السابق نفسه، ص١١٨.

[١٧] انظر: الأمير، يحيى سعد البازعي، (المحاضرة ستقدم قراءة في كيفية تفاعل النقد الحديث مع النظريات النقدية الغربية)، **جريدة الرياض**، اليوم الثلاثاء ٢٧، ع (٢٧٣٠)، صفر ١٤٢٤هـ/٢٠٠٥م، س (٣٨)؛ وانظر:الأمير، يحيى سعد البازعي، **استقبال الآخر الغرب في النقد العربي الحديث**، (الرياض: دار نشر المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م).

[١٨] انظر: الواصل، أحمد، (كتاب استقبال الآخر لسعد البازعي ١- ٣)، **جريدة الرياض**، ع (١٣١٧٣)، الخميس، ٢٧ جمادى الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٦م. (بتصرف).

[١٩] انظر: مصطفى، سلاوي، **تحليل النص الشعري**، ط١، (وجدة: دار النشر الجسور، ٢٠٠١ م)، ص٧٢.

[٢٠] انظر: السابق نفسه.

[٢١] انظر: الجراري، عباس، **خطاب المنهج**، ط٢، (الرباط: الهلال العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٥م)، ص٣١.

[٢٢] انظر: السابق نفسه، ص٣١.

[٢٣] انظر: عبد الحليم، عويس، (موقف الفكر الإسلامي من الحضارة الحديثة)، **مجلة المنهل السعودية**، المجلد ٥٣، ع (٤٩٥)، ١٩١٢م، ص٢٣.

[٢٤] انظر: العيد، جلولي، (إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر)، موقع إلكتروني: **شبكة الأدب واللغة (ألف لام)**، تاريخ الاطلاع ٢١ أغسطس ٢٠١٠م، http://www.aleflam.net/index.php/naqd/425-2010-08-21-10-30-31.html .

[٢٥] الجراري، **خطاب المنهج**، ص١٩-٢٠.

[٢٦] انظر: الأمراني، حسن ، (ثقافتنا المعاصرة بين الكائن والممكن)، **مجلة المشكاة المغربية**، ع (١٤)، س (٤)، ١٩٩١م، ص٧.

[٢٧] البازعي، سعد، (استقبال الغرب في النقد الأدبي)، **المجلة الثقافية**، ع (١٥)، الاثنين ٩ ربيع الثاني، ٢٠٠٤م.

References: **المراجع:**

ʿabdu al-Ḥalīm, ʿuwīs, Mawqif al-Fikr al-Islāmi Min al-Ḥaḍārah al-Ḥadīthah, *Majallh al-Manhal al-Sʿūdiyyah*, al-Mujalld 53, al-ʿadad 495, 1992).

Bu ʿali, ʿabd al-Raḥmān, *Fī Naqd al-Manāhij al-Muʿāṣirah al-Bunyawiyyah al-Takwīniyyah*, 1st Edition, (Rabat: Maṭbaʿah al-ʿārif al-Jadīdah, 1994).

Al-ʾamīr, Yaḥya Saʿd al-Bāziʿiy, *al-Muḥāḍarah Sataqadam Qirāʾah Fī Kaifiyyah Tafāʿul al-Naqd al-Hadīth Maʿa al-Naẓriyyāt al-Naqdiyyah al-Gharbiyyah*, *Jarīdah al-Riyāḍ*, al-Yūma; al-Thulāthāʾ 27, al-ʿadad 12730, Ṣafar 2004, al-Sanah 38.

Al-ʾamīr, Yaḥya Saʿd al-Bāziʿiy, *Istiqbāl- al-Gharīb Fī al-Naqd al-ʾadabiy, al-Majallah al-Thaqāfiyyah, al- ʿadad 15*, al-Ithnīn 9 Rabīʿ al-Thāni, 2004.

Al-Ḥamidāni, Ḥamid, a*l-Naqd al-Riwāʾi wa al-ʾaidilūjiā: Min Sisyulūjyā al-Riwāyah ʾilā Sisyulūjyā al-Naṣ al-Riwāʾi*, (Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfiy al-ʿarabiyyah, 1990).

al-Jarāri, ʿabbās, *khiṭāb al-Manhaj*, 2nd edition, (Rabat: al-Hilāl al-ʿrabiyyah Lilṭibāʿah wa al- Nashr, 1995).

Al-ʾamarāni, Ḥasan, *Thaqāfatunā al-Muʿāṣirah Baina al-Kāʾin wa al-Mumkin, Majallah al-Mushkāh al-Maghirbiyyah*, ʿadad 14, al-Sanah al-Rābiʿah.

Al-Wāṣl, *Aḥmad, Ketāb Astqbāl- Al-Akhr Le Sʿd Al-Bāzʿy 1- 3*, Jrydh Al-Ryāḍ, Al-Aʿdd 13173, Al-Khmys, 27 Jmādā Alʾwlā, 1991).

Fāḍil, Thāmir, *al-Lughah al-Thāniyah Fī Shakliyāt al-Manāhij wa al-Naẓariyyah wa al-Muṣṭalaḥ Fī al-Kitāb al-Naqdi al-ʿarbiyy al-Hadīth*, 1st Edition, (Casablanca: al-Marakaz al-Thaqāfiy, 1994).

Ḥamūdah, ʿabd al-ʿazīz, *al-Marāyā al-Muḥddabah Min al-Bunyawiyyah ʾilā al-Tafkīk*, (Kuwait: Silsilah ʿālam al-Maʿrifah, 1998).

Muṣṭafā, Slāwi, *Taḥlīl al-Naṣ al-Shiʿri*, 1st Edition, (Wijdah, Dār al-Nashr al-Jsūr, 2001).

Al-ʿīd, Jalūli, ʾishakāliyyah al-Manhaj Fī al-Naqd al-ʿarabiyy al-Muʿāṣir, Mawqiʿ ktrwny: Shabakah al-ʾadab wa al-lughah (ʾalif lām), Tārīkh al-Ziyārah 21 August 2010, *www.aleflam.net*.